الرأسمالية في صراعها ضد المعسكر الشرقي والدول الراغبة في التحرر . ويعبر المقال عن ذلك قائلا : « فذكرى وعد بلفور ليست اذن ذكرى الغدر البريطاني او الحقد البريطاني . بل هي ذكرى تناقض المبادىء والمصالح بين الدول ذات الانظمة الرأسمالية وبالتالي الاستغلالية والدول التواقة الى التحرر . فالتناقض بيننا وبين الغرب ليس تناقض مزاج ، بل هو تناقض مبدأ ومصلحة . وما وعد بلفور الا مظهر من مظاهر هذا التناقض . ولهذا فكل تجزئة لمشاكل العرب السياسية مع الغرب تدفعنا مجددا الى المواقف المثالية والعاطفية وتفتح مجالا واسعا لوعود جديدة اشد واخطر من وعد بلفور »(١٤) .

إن هذا التطور الواضح يشير الى نقلة هامة وخطيرة في نظرة البعث وتقويمه للاستعمار والرجعية عبر القضية الفلسطينية . فهو ينكر المواقف العدائية العاطفية والنظرة المثالية الى الامور السياسية . وهو ، ثانيا ، يرفض المقاييس الخلقية . وهو ، ثالثا ، يدعو الى نقد صريح وجريء للطريقة السابقة في تفسير الخطوات الاستعمارية . وهو ، رابعا ، يشير بشكل حاسم الى دور مصلحة الدول الرأسمالية والفئات التي تمثلها في رسم السياسة الاستعمارية . وهو خامسا ، يرجع التناقض بيننا (بين الدول التواقة الى التحرر) وبين الغرب ، الى تناقض مبدأ ومصلحة لا الى تناقض مزاج . وهذه النقطة حاسمة وهامة ؛ اذ انها تستبعد كل الاوهام المثالية ، وتضع اصبعها على التناقض الجوهري قوميا وطبقيا . ومن هنا ، نرى الاهمية القصوى لهذا المقال الذي كتب عام ١٩٥٩ ، في ضوء تطور نظرة الحزب من الاربعينات حتى اواخر الخمسينات . والمقال ، سادسا ، يرصد ظاهرة استلام الولايات المتحدة قيادة المعسكر الامبريالي .

يتبين من كل ذلك ان البعث حقق في الخمسينات ــ مرحلة المد القومي التحرري بآفاقه الاجتماعية التقدمية ــ تطورا ملموسا ونحا منحى اكثر واقعية ونضجا وجذرية . ولا يمكن اعتبار ان هذا التطور جاء نتيجة مصادفة او نتيجة قرار مزاجي . فقد كانت مرحلة الخمسينات مرحلة مواجهة وتصد للامبريالية والرجعية المحلية العربية . فلم يقتصر هذا التطور الذي فرضته ظروف المرحلة الموضوعية والتاريخية على البعث وحسب ، بل امتد تأثيره ليشمل عبد الناصر والناصرية ودفعها باتجاه تجذير ثوريتها ورؤيتها للصراع . ولقد رافق هذا التطور الفكري تطور على الصعيد العملي ، عبر عن نفسه بالوحدة بين مصر وسوريا وبالاجراءات الاشتراكية عام ١٩٦٢ في مصر .

في مرحلة الخمسينات عقد المؤتمر القومي الثاني للحزب (حزيران ١٩٥٤) والثالث (آب ــ ايلول ١٩٥٩) . واذا كانت مرحلة الخمسينات قد شهدت مدا قوميا تحرريا معاديا للامبريالية ، محاربا لبعض مصالحها الحيوية ، ومجذرا الهوية القومية ذات المضمون الاجتماعي التقدمي ، فانها قد تعرضت لانتكاسات هامة . ويعتبر البعث ان اهم هذه الانتكاسات واخطرها يتلخص في انتكاسة الحركة الوطنية في الاردن ، وانحراف ثورة ١٤ تموز في العراق عن المسار الذي رسمته القوى القومية التي اشتركت فيها ، وببداية تعثر تجربة الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة مما مهد لفشلها اللاحق(١٥) .

تطور موقف البعث من الاتحاد السوفياتي من خلال القضية الفلسطينية

أدبيات البعث في مرحلة الاربعينيات كانت تضع الاتحاد السوفياتي في مصاف الدول